East West Meeting 2004

"East-West Dialogue : Reference to Monasticism"

Minster Abbey – Rasmgate

September 30th – October 6th 2004

الرؤيا والعمل عند القديس غريغوريوس بالاماس

– مساهمة إلى الرهبنات المعاصرة –

المطران د. بولس يازجي

متروبوليت حلب والاسكندرون وتوابعهما للروم الأرثوذكس

P.B. 6976 Aleppo – Syrie -Tel: + 963 21 4660670 - Fax: + 963 21 4660671

-Website: www.alepporthodox.org E-mail: secretary@alepporthodox.org

Ramsgate - England

2004

الرؤيا والعمل عند القدّيس غريغوريوس بالاماس[1]
مساهمة إلى الرّهبنات المعاصرة

مقدّمة

الفصل في الحياة المسيحيّة بين فئتَين من الناس أو طريقتَين للحياة، "المتأمّلة والعاملة" من الأخطاء الشائعة في عالمنا اليوم. هذا الفصل بالنهاية يأخذ صورتَيه الواضحتَين والمتناقضتَين في حياة الرهبنة. هكذا يتمّ الخلط بين قبول الكنيسة والتقليد الشريف لتنوّع المواهب في الحياة، وبين وحدة الغاية المسيحيّة للحياة. فنقول هناك "رهبنات عاملة" و"رهبنات متأمّلة". وهذا التقليد لم يعرفه الشرق الأرثوذكسيّ ولا التقليد المسيحيّ القديم. كما أنّ لهذا الفصل نتائج روحيّة وكنسيّة غير إيجابيّةٍ على حياة الكنيسة عامّة.

هناك فعلاً طريقان أو مكانان للحياة المسيحيّة. فهناك نسّاكٌ في "البريّة" وهناك خدّامٌ في "الرعيّة". لكن يجب وإن اختلفت طريقة الحياة، وهذا ما نسمّيه تنوّع في المواهب، ألاّ تختلف الروحانية، وهذا ما نسمّيه وحدة الغاية. يجب ألاّ تكون روحانيّة أهل البراري مغايرةً لروحانيّة خدّام الرعايا. أحياناً يبلغ التمييز الخاطئ بين روحانيّة الطريقَين حدّاً مُبالغاً عندما يُقبل انعزالُ أهل البريّة (رهبنات تأمليّة) حتّى درجة انقطاعهم عن واقع ومسائل الكنيسة وحياها، وكأنّها رهباناتٌ لتحقيق البرّ الذاتيّ – الخلاص، من جهة أولى، وعندما تُقبل، من الجهة الثانية، سطحيّةُ خدام الرعيّة وعلمنة الخدمة فيها؛ فيفسد الملح الذي بدونه لا يملّح!

بالنسبة للبعض إذاً لا يوجد لقاءٌ بين البريّة والرعيّة، ولا من روحانيّةٍ مشتركةٍ بين التأمّل والخدمة، ولا من تشابهٍ بين الرؤيا والعمل. وكأنّ الأولى هي حياةٌ تهتمّ بالنظريّات والثانية طريقٌ تختصّ بالأمور العمليّة. من منظورٍ كهذا يمكننا أن نصل بسهولةٍ إلى تطويب مرثا عوض مريم، على عكس ما فعل يسوع، عندما صرّح علانيةً أنّ التأمّل (سماع الكلمة) عند مريم هو النصيب الصالح، وأنّ الاهتمام بالأمور الكثيرة عوض السماع هو نصيبٌ أصغر.

هذه النظرة الخاطئة السابقة لحقيقة معنى الرؤيا والعمل، ولحقيقة كلٍّ من البريّة والرعيّة، وحقيقة التأمّل والخدمة، تقودنا إلى أحد طرفَين خطِرَين. ففئة التأمّل تصير جماعة نظريّاتٍ تنقطع عن غايتها وهي الإنسان، وذلك بحجّة التخصّص بالإلهيّات، التي تصير لغةً غير مفهومةٍ وغير عمليّةٍ للإنسان. وهذه الفئة تطرد الله من حياة الإنسان بسببٍ من طريقة المبالغة الخاطئة في البحث عنه. أو من الجهة الثانية، ترى هذه النظرة "الخدّام" كفَعَلةٍ تبرّر لهم أعمالُهم القيّمة جدّاً غيابَ الروحانية، في سبيل الإنسان والآخر، وتقودنا إلى علمنة خطرة في

---

[1] ترجمة عن المقالة:
Theoria & Praxis according to St. Gregory Palamas, Contribution to contemporary monasticism, East-West Meeting 2004, “East-West Dialogue: Reference to Monasticism”, Minster Abbey – Kent 30th September – 6th October 2004.

الكنيسة. وكأنّ على الخادم أن يُصاب "بالخفّة" وعلى النّاسك أن يعيش في "الغيبوبة". فلا هذا ينفع ولا ذاك يفيد. وكلا الطرفَين وإن ظهرا متناقضَين تماماً هما في العمق عملٌ واحد، وهو إخراج الله من حياة الإنسان وجعله مبدأً يُخدم أو يُدرس.

كلا الحالَين يتطرّفان ويجهلان أنّ "ملكوت الله في داخلنا". فللغائب في تأمّلاته يغدو ملكوت الله في السماء، وللغائص في الخدمة يصير ملكوت الله في المجتمع. وتنقطع هكذا المعركة الداخليّة بين الله والإنسان كتلك المعركة بين يعقوب والملاك! فذاك يروح يتصارع مع أفكاره ودراساته وهذا يتصارع مع حيثيّات حياة الناس وكأنّ حلّها (على ضرورته) هو نهاية المطاف.

هذه هي المعركة الداخليّة العميقة التي يسمّيها الكتاب "التقديس"، ويعرّفها الأدب النسكيّ بـــ "التطهير"، إنّها المعركة المطلوبة من طريق "التأمّل" ومن طريق "الخدمة"، ويجب أن تكون السبب المحرّك في هذَين الطريقَين.

يدخل الله إلى داخلنا، فيصير هذا الداخل "ملكوتاً" له، لا بل ساحة معركة يقوم فيها اللهُ ويتبدّد جميعُ أعدائه. هذه هي غاية الحياة المسيحيّة: التطهير أو التقديس. وللوصول إلى هذه الغاية هناك طرق متعدّدة. قد تكون البريّة كما الرعيّة، وقد يكون التوحّد كما الخدمة. هكذا يمكننا أن نميّز بين المواهب المتعدّدة، ولكن علينا ألاّ نفرّق بين غايات هذه المواهب، وهي غاية واحدة، التماس وجه الربّ في الملكوت الداخلي. ليس الزواج مثلاً سبباً ليجعل داخلنا مهجوراً من الله ومسكوناً من أشياء أخرى. ولا البريّة مفيدة حين تكون مسكناً للذّات وليس ملتقى لله بالإنسان.

حين نركّز اهتمامنا بالحياة الداخليّة في "ملكوت الله" عندها تلتقي البريّة بالرعيّة، ويقود العمل إلى الرؤيا، وتدفعنا الرؤيا إلى العمل. إنّ الساحة الحقيقيّة للحياة هي "الداخل" سواء إن كان في بريّةٍ أو وسط الرعيّة. عكس ذلك تنفكّ حلقة الوصل وتتطاير كلّ فئة بسرعة باتّجاه عكس اتّجاه الأخرى. إنّ القلب الذي يعمل يصل إلى التأمّل، والقلب المتأمّل يعطيه الرّوح أن يعمل. هذه هي الحركة الحقيقيّة للحياة التي يجب علينا تعلُّمها في البريّة وتعليمها في الرعيّة.

هنا في الداخل في "ملكوت الله" يجب أن نـــزور البريّة أو نلتقي الرعيّة. هذا الملكوت يُحضِر الله في البريّة وهذا القلب يخدم الإنسان في الرعيّة. ليس الموضوع مسألة غيبيّاتٍ عقائديّة أو ميستيكيّة تُدرس في بريّة، ولا هو أيضاً التزام شؤون اجتماعيّةٍ تُمارس في الرعيّة. الموضوع هو اتّحاد الإنسان بالله، سواء كان في عزلةٍ أو في مجتمع. وهذا الاتّحاد لا يحصل في البريّة ولا في الشوارع، بل في "الداخل".

هناك إذاً روحانيّةٌ واحدةٌ للحياة المسيحيّة، وهي غاية كلّ مسيحيّ ومطلوبة من كلّ واحد. إنّها روحانيّة التقديس، روحانيّة بناء الإنسان هيكلاً للرّوح. الحياة المسيحيّة مسيرة واحدة، هي فتح الذّات أمام

سكب الرّوح القدس. وهذه المسيرة يمكن أن تتدرّج على رمل البراري كما في شوارع المدن. المسألة ليست المكان ولكن الرفقة. فحيث يرافقنا يسوع هناك الملكوت.

لذلك، في كنيستنا الأرثوذكسية، كلمتا "عمل" و"رؤيا"، أو خدمة وتأمّل، ليستا معنيَين لطرفَين متباينَين ولا لمواهب مختلفة، إنّما تعنيان درجتَين مختلفتَين من الحياة الروحية ذاتها، فالواحدة هي مقدّمة الأخرى، والثانية تنبع من الأولى وتليها. فالعمل أو الخدمة (πράξις) يعني حياة الجهاد الداخليّ من صلواتٍ وأسهارٍ وأصوام، إنّها مرحلة الابتداء. أمّا التأمّل أو الرؤيا (θεωρία)، فيعني المرحلة اللاحقة حيث يصل الإنسان بعد مرحلة العمل والخدمة إلى حالة رؤية الله في كلّ عملٍ وخدمةٍ. في المرحلة الأولى تظهر صورة الجهاد والأعمال، وفي المرحلة الثانية تسيطر صورة النعمة والله.

التأمّل هو غاية الخدمة، والرؤيا هي غاية العمل. فخدمةٌ لا تصل إلى تأمّلٍ هي عاقر، وعملٌ لا يصل إلى رؤيا هو باطلٌ. يمكننا أن نعمل أو نخدم حيثما نختار، ولكن علينا من الخدمة والعمل أن نصل إلى الرؤيا والتأمّل.

إنّ الأمثلة والنماذج الأولى في حياة الكنيسة هي نماذج الرعاة الذين عملوا في البريّة وتأمّلوا في الرعاية. أي تعبوا وأعدّوا ذواتهم (مرحلة الخدمة والعمل) في البريّة ثم انطلقوا يرعون الناس (رؤية الله والتأمّل به) في المدن. إنّ الأقمار الثلاثة وكبار القديسين أعدّوا ذواتهم في البريّة وليس في المدن، وقدّموا وتأمّلوا بالله وعاينوه في المدن وليس في البريّة. نعم البريّة هي الأنسب للمرحلة الأولى، دون الحصر. ولكن مَن يعمل يمكنه أن يتأمّل بعدها في مدينةٍ كما في المغاور والمناسك.

ومن هذه الأمثلة المميّزة جداً كان القديس غريغوريوس بالاماس. إنّ استعراضاً سريعاً لحياته ونشاطه ونسكه يشرح لنا كيف كان هذا القديس رجلَ عملٍ ورؤيا بشكلٍ مميّز.

لقد نشأ القديس وتعلّم العلومَ الإنسانيّة الفلسفيّة ثم فَرضت عليه ظروفُ الحياة القاسية التنقّلَ. واختار هو الحياة الرهبانيّة في جبل آثوس متوحّداً للصلاة. ثم تواجه مع برلعام حول أهمّ مفاهيم التأمّل ورؤية المجد الإلهيّ غير المخلوق وكتب مدافعاً عن المعرفة الحقيقية، التي ليست هي أبداً المعارفَ المعلوماتيّة الفلسفيّة ولكنها تلك الحكمة التي تأتي من طهارة الحياة وتطهير الأهواء، أي تنقية القلب. لأنّ أنقياء القلوب يعاينون الله.

شغل بعدها هذا الراهبُ مسؤوليّةَ أسقف تسالونيك، وهناك لم يتردّد عن الوعظ لعامة الناس، بأنّ الفضائل المسيحيّة والاتّحاد بالله ليس هدفاً للمتوحّدين فقط بل لكلّ مسيحيٍّ، لهؤلاء الذين في الرعايا أيضاً.

تقلبُ لنا حياةُ هذا القديس مفاهيمَنا الخاطئة عن التأمّل والخدمة، الرؤيا والعمل. فهو من أهمّ القديسين الذين اختبروا النور الإلهيّ بالتأمّل والرؤيا، ولكنّه لم ينقطع عن العمل والخدمة في الكنيسة تجاه أهمّ مشاكلها الكبرى (معركته مع برلعام) وتجاه حياة الناس العمليّة (عمله كراعٍ في تسالونيك).

هكذا يتكسّر هذا الحاجز الوهميّ الذي يفصل بين حياة التأمّل وحياة الخدمة، ويبدو أنّ هذا القديس تأمّل خادماً وخدم متأمّلاً. لقد جمع بين الطريقَين و لم يخسر في أيٍّ منهما رؤية الله والتأمّل.

سوف نطالع كتاباته ونشرح بناء على التقليد وخاصّة في مؤلفاته، معاني الرؤيا والعمل في تقليدنا الأرثوذكسيّ الذي لم يعرف ولا يريد الفصل بين الغاية الواحدة والروحانية الواحدة للطريقَين، في الخدمة وفي الوحدة.

لقد دخل هذا الفصل العنيف بين حياة الخدمة وحياة التأمّل، وكأنّهما نوعا حياة وليس درجتَي جهاد، منذ القرون الوسطى في العالم الغربيّ، وذلك بتأثيرٍ من سيطرة العقلانيّة المتطرّفة (Rationalism) ومنذ عهد توما الأكويني خاصّة.

معنى العمل (Action, Praxis)

ننطلق إذاً من المبدأ الأساسيّ أنّ عمل (Praxis) وتأمّل (Theoria)، ليسا طريقَين متضادين في الحياة، إنّما هما الدرجتان المتتاليتان في الجهاد الرّوحي. الأولى تقودنا إلى الثانية، والثانية تحرّك الأولى وتنشّطها. العمل يحضّرنا للرؤيا – معاينة الله، ومعاينة الله – الرؤيا هي قوة العمل.

يرى إيليّا الكاهن (Ηλίας ο πρεσβύτερος) أنّ العمل والرؤيا يشبهان امرأة تملك بيدَيها مشعلَين، وكلاهما يساعدانها على المشاهدة (بمعنى رمزيّ لمعاينة الله)[2]. التألّه أو معاينة الله، أي "الرؤيا" هو هدف الحياة المسيحيّة أينما وكيفما كانت. فالعمل هنا يمثّل المرحلة من الحياة التي يتدرّج فيها الإنسان نحو معاينة الله، وهذا ما نسمّيه "المثال" أي المشاركة أكثر في المجد الإلهيّ. فإذا كان العمل (Praxis) هو الجهاد والمحاولة، الذي يتطوّر وينمو، فإنّ الرؤيا تمثّل الثبات في حالة معاينة الله[3]. هكذا إذاً فالعمل (Praxis) يعني المرحلة التي تجري فيها ممارسة الفضائل والجهادات لتطهير الإنسان من أهوائه بحيث يصل إلى معاينة الله، لأنّ أنقياء القلوب يعاينون الله. لذلك فالعمل (Praxis) يعني مرحلة التطهير (κάθαρσις) والتنقية، ولهذا تدعى بالفلسفة العمليّة (πρακτική φιλοσοφία).

[2] Βλάχου, Ιερόθεου, *Εκκλησιαστικό φρόνημα*, έκδ. Ι. Μ. Γενεθλίου της Θεοτόκου, ^{2}1993, σσ.178-9.

[3] "Η πράξις είναι η εν Θεώ προσπάθεια, η δε θεωρία η εν Θεώ διαμονή, δηλαδή η Θεωρία του Θείου και άκτιστου φωτός, η θέωσις του ανθρώπου". Βλάχου, Ιερόθεου, ό.π., σ.179.

وعندما يجري الكلام في التقليد الآبائيّ والنسكيّ عن ثلاث مراحل للحياة الروحية: أوّلاً، التنقية؛ ثانياً، الاستنارة وثالثاً، التأله، فإنّ العمل (Praxis) يمتدّ على مدى المرحلتَين الأولى والثانية.

هكذا تبدأ التنقية في المرحلة الأولى أي التحرّر من الأهواء باتجاه الطهارة (απάθεια)، في هذه المرحلة تصير اللذّة (ηδονή) أي النـــزوات والرغبات الدنيويّة غير مرغوبٍ بها، لا بل مكروهةً ومؤلمة (οδύνη). يقول اسحق السريانيّ "بدايةُ التوبةِ كرهُ الخطيئة". هذه مرحلة إصلاحٍ للذوق البشريّ وتطهيرٍ لرغباته وتنقيته واستبدالٍ لعشق الدنيويّات بالعشق الصحيح والسليم، العشق الإلهيّ (θείος έρωτας)، عندها يتحرّر الذهن (νούς) من الجهل (άγνοια) ويتخلّص مما يشتّت حضرة الله عنده، آنذاك يصل إلى مرحلة الاستنارة، التي تعني مرحلة الصلاة الدائمة. والصلاة لا تعني تكرار الصلوات وساعات الطقوس وأشكالها، إنّما إدراك حضرة الله في الحياة بشكلٍ دائمٍ، وتَوافق الإرادة البشريّة مع إرادته، أي طاعته بحريّة أبناء الله، دون صراعٍ داخليّ، ذلك الصراع الذي يرافق مرحلة التنقية التي يكون القلب فيها مازال متعلّقاً بالدنيويّات، أمّا هنا فهو حرّ ومتحرّر من غواية الدنيا. في مرحلة الاستنارة لا يغيب الله عن الحياة ويتحرّر الإنسان من النسيان (λήθη). عندها تتحقّق الوقفة أمام الله (η εν Θεώ διαμονή)، وعشرته الدائمة، هنا تذوب المخيّلات الوهميّة وتبقى معاينة الله (θεωρία).

بكلمةٍ أخرى المقصود بـــ "العمل" (πράξις) هو ممارسة الصلاة والصوم والسهر، هذه الفضائل الثلاث التي تلخّص كلّ الجهادات والفضائل المسيحيّة. لذلك ترنّم الكنيسة لرؤساء الكهنة الرعاة الذين خدموا الأغنام الناطقة واستشهدوا من أجلهم: "صرتَ مشابهاً للرسل في أحوالهم، وخليفةً في كراسيهم، فوجدتَ بالعمل المرقاة إلى الثاوريا، أيّها اللاهج بالله. لأجل ذلك تتبعتَ كلمة الحقّ باستقامة، وجاهدت عن الإيمان حتّى الدم، أيّها الشهيد في الكهنة..."، يقود العمل إذاً إلى الرؤيا. والعمل كما يبدو هو حفظ الإيمان الحقيقيّ (الإيمان النظريّ) والعقائدي، وأيضاً الاستشهاد حتّى الدم. تُرنَّم هذه الطروباريّة للرّعاة الذين عملوا ليس في البريّة إنّما في الرعيّة. بصورة مشابهة ترنّم الكنيسة للأبرار الذين تنسّكوا في البريّة و"نالوا المواهب السماويّة" أي الرؤيا، أنّهم "بالأصوام والأسهار والصلوات" تقبّلوا هذه المواهب (الأشفية والرؤيا).

إنّ التقليد الأرثوذكسيّ الروحيّ النسكيّ التزم دائماً طريق اللاهوت التنـــزيهيّ (αποφατική θεολογία) للاقتراب من الله. وهذا ما حرّره من تأثيرات الفلسفة والسخولاستيكيّة. لذلك فإنّ رؤية الله

ومعاينته لا تتمّ بالإدراك العقلانيّ وبطرقٍ فلسفيّة (γνωστικά) وإنّما بالخبرة الداخليّة الناتجة عن حفظ الوصايا وممارسة الفضائل وعيشها، الأمر الذي ينقّي القلب.

لذلك تُكوِّن كتابات آباء القرن الرابع عشر مثل غريغوريوس بالاماس والآخرين ربع مؤلّفات الفيلوكاليا، وهم الآباء الذين، بسبب من المرحلة واحتكاك الأرثوذكسيّة مع السخولاستيكيّة والعقلانيّة (Rationalism) في الغرب، أكّدوا أنّ منهجيّة وأداة الاقتراب من الله ليس العقل والفلسفة بل بشكلٍ أساسي تنقية القلب وحياة النسك. ولقد حاول نيقوديموس الآثوسي (جامع الفيلوكاليا) أن يجمّع مؤلّفاً خاصاً للقدّيس غريغوريوس بالاماس[٤].

يعرّف أوليفيه كليمان كلمة "عمل" و"رؤيا" على الشكلّ التالي[٥]:

Praxis = pratique = l'action du moine sur lui-même = κάθαρσις ζωής = perfection

هكذا بالنسبة للقدّيس بالاماس، فإنّ الطريق التي نصل بها إلى معاينة الله والالتصاق - الاتحاد به هي أعمال التوبة، وهذه الأعمال هي محبّتنا المطلقة لله، التي تتحقّق بالتنقية من الأهواء بفضل حفظ كلّ الوصايا والنجاح في عيش الفضائل[٦].

يصنّف القديس مكسيموس المعترف، وهو أب مستيكي، المؤمنين في ثلاثة مقامات روحيّة. فالأُوَل هم القادمون إلى الإيمان (οι πιστοί)، والذين هم مجرّد قبلوه. أمّا الدرجة الثانية فهم الذين يمارسون الوصايا وينجحون في حفظها (οι πρακτικοί). والمقام الأخير فهم الكاملون والعارفون (οι γνωστικοί). وهنا كلمة (عارفون - γνωστικοί) لا تشير إلى انشغالٍ فكريّ عقلانيّ، بل إلى الكمال المسيحيّ (τέλειοι) الذي يتحقّق بتنقية الذات[٧].

إنّ الـــ "γνωστικοί" (العارفون - الكاملون)، هم المؤمنون الذين توصلوا بتنقية ذواتهم إلى التحرّر من غواية وخدعة العالم، بحيث تتحرّك أنفسهم عندما يتعاطون مع الأمور الدنيويّة بشكلٍ روحانيّ نحو معاينة الله (φυσική θεωρία) وبعدها تسمو إلى مرحلة "اللاهوت" (φανερή θεολογία)[٨].

مرحلة "العمل" للقديس غريغوريوس بالاماس هي محاولة خلع الذهنية الدنيوية المادّيّة والجسدانية[٩].

---

[4] Clément, Olivier, *La Philocalie, présentée par Olivier Clément*, Desclée de Brouwer, Paris 1995, Introduction.

[5] Clément, Olivier, *La Philocalie*, *Précisions de vocabulaires*, p.687. Τσάμη, Δημητρίου, *Εισαγωγή στην πατερική σκέψη*, έκδ. Πουρναράς, Θεσσαλονίκη 1990, σ.343.

[٦] غريغوريوس بالاماس، [*ΕΠΕ Έργα*, τ.8, σ.17].

[٧] مكسيموس المعترف، [*Μυσταγωγία*, *PG* 91, κεφ. ΚΒ-ΚΓ].

[8] Ψευτογκά, Βασιλείου, *Λόγος σαρκωμένος-Εκκλησία-Ευχαριστιακός λόγος*, έκδ. Κυρομάνος, Θεσσαλονίκη 1998, σ.279.

[٩] غريغوريوس بالاماس، [*ΕΠΕ Έργα*, τ.10, σσ.404-6].

يقدّم بالاماس في شرحه لحدث التجلّي درجات الحياة الروحية بشكلٍ رمزيّ مع الأحداث التي تـمّت في التجلّي. وهنا يظهر تماماً مفهومه للعمل والرؤيا. فيقول: لقد تمّ حدث التجلّي بعد "اعتراف – إقرار" بطرس بألوهيّة المسيح (ομολογία). ثم تلته ستّة أيّامٍ، لا يذكر الإنجيليّ فيها شيئاً، وهي مرحلة من "الصمت والهدوء" (σιωπή)، وبعد اليوم السادس أخذ يسوع تلاميذه وصعد إلى الجبل ليصلّي، وهناك في تلك المرحلة زمن "الصلاة" (προσευχή) تـمّ التجلّي. وهذه هي المراحل الثلاث التي تمثّل تقدّم الحياة الروحيّة للإنسان. تبدأ المرحلة الأولى (الاعتراف – ομολογία) بمعرفة كاملة للإيمان وفهم الوصايا ومعاني الكلمة الإلهيّة. أمّا المرحلة التي تليها فهي مرحلة "الصمت" (σιωπή) وتعني للقديس بالاماس مرحلة النسك وتطبيق الوصايا وممارسة المعرفة بالحياة، إنّها مرحلة تنقية الذات. وهاتان المرحلتان هما زمن العمل (πράξις). عندها يصل الإنسان إلى التجلّي (μεταμόρφωση) أي في زمن الصلاة (προσευχή) وهي مرحلةُ مرافقة حياتنا لحضرة الله وحياته وهذا ما يسمّى التألّه (θέωσις) أو الرؤيا (θεωρία)[10].

هناك الإيمان (πίστη)، والكنيسة (εκκλησία) والملكوت (βασιλεία). والمقصود بالإيمان هو أيّام الدهر الستة، وبالكنيسة اليوم السابع وبالملكوت اليوم الثامن. فالعقل يساهم في فهم الوصايا وهي مرحلة الإيمان. لكنّ النسك وأعمال الفضيلة تجعلنا نحيا في الكنيسة، وهذا هو السبت (الراحة – σαββατισμός)، وإلى هنا نكون في العمل (πράξις). أمّا الرؤيا (θεωρία) فهي اليوم الثامن وزمن الملكوت. إذاً العمل (πράξις) هو زمن الصمت (σιωπή)، والرؤيا (θεωρία) هي زمن التجلّي. "فالصلاة والصوم" كما قال يسوع للتلاميذ حين عجزوا عن طرد الشيطان بعد حدث التجلّي مباشرةً، هما أعمال الأيّام الستة والسابع، وبدونهما لا يمكن معاينة الله (التجلّي) والدخول في اليوم الثامن.

لقد وبّخ بالاماس أولئك الذين حوّلوا المسيحيّة إلى نظامٍ فلسفيّ كالعلوم الإنسانيّة وإلى مجرّد معضلةٍ أو لذّةٍ فكريّة، وتكلّم عن الفلسفة الحقيقيّة. ألم يصل مناوئه (αντίπαλος) برلعام إلى نتيجته أنّ الفلاسفة هم أهمّ وأقدر من الرسل والقديسين، لأنّهم ملكوا معارفَ علميّةً وفلسفيةً أسمى!

بالنسبة لبالاماس فإنّ الفلسفة الحقيقيّة (المعرفة الحقيقيّة) هي معاينة الله، والتي لا تتمّ دون العمل[11]. تدخلنا المعرفة (γνώσις) إذاً إلى درجة العمل والتدريب (πρακτική)، وليست هي الثاوريا، لا بل إنّها المدخل إلى حياة العمل (πράξις).

---

[10] Βλάχου, Ιερόθεου, *Ο Άγιος Γρηγόριος Παλαμάς ως Αγιορείτης,* έκδ. Ι. Μ. Γενεθλίου της Θεοτόκου, 1996, σσ.355-6.

[11] "Μόνον δείξον επί των έργων την είδισιν· κατάβηθι προς το πρακτικόν της γνώσεως στάδιον· αγώνισαι τον καλόν αγώνα". *Προς Ιωάννη και Θεόδωρον τους φιλοσόφους, ΕΠΕ Έργα*, τ.8, σ.463.

هذا التشديد على الأعمال وإظهار المعرفة من الأعمال، كما قال يعقوب الرسول: أن نُظهر إيماننا بأعمالنا، لا تعني أبداً غياب القناعة بأنّ هذه الأعمال ليست إنجازاً فرديّاً بشريّاً وحسب، وإنّما تتمّ كلّها بقصد النعمة الإلهيّة.

إنّ المحاولة البشريّة لا تصل إلى تنقية قلب الإنسان، إنّما تستقطب نعمة الرّوح، وهذه الأخيرة هي التي تطهّر القلب البشريّ. إنّ الإطار الذي يتعاون فيه الإنسان مع النعمة الإلهيّة هو الكنيسة بأسرارها الإلهيّة. إنّ مرحلة "العمل" (πράξις) تتحقّق في ساحة عملٍ هي الأسرار الكنسيّة، يجري الكلام عند بالاماس وفي التقليد عن "قدرة الأسرار التطهيرية"، "φωτιστική ενέργεια των μυστηρίων"[١٢].

إنّ حريّة الإنسان بعد السقوط صارت عرضةً للتأثّر بسرعةٍ من غواية العالم وتميل نحو الشر، لذلك يحتاج الإنسان الحرّ إلى مساندة النعمة الإلهيّة دائماً ليتابع مسيرته وصعوده نحو التألّه، تلك المسيرة التي تقطّعت بسبب الخطيئة[١٣]. ليس فقط إنجاز الأعمال والفضائل يحتاج لمشاركة النعمة لا بل حتّى أن نريد الخير يحتاج لعضد النعمة[١٤].

عندما نقول بأنّ "العمل" هو مرحلة لتطهير وتنقية القلب وتهيئة لمعاينة الله، تجدر بنا الملاحظة أنّ "القلب" يعني كامل الكيان البشريّ. فليس المعني تنقية الفكر فقط، وإنّما تنقية الجسد أيضاً. إنّها مرحلة إعداد الإنسان بكامله جسداً ونفساً. الإنسان مزدوج الطبيعة، وبناءً عليه فإنّ التنقية تشمل كامل طبيعته[١٥].

"العمل يقودنا إلى الرؤيا"، عبارة شهيرة للقدّيس غريغوريوس اللاهوتي، " πράξις γαρ επίβασις θεωρίας"[١٦]، تقابلها عبارةٌ مماثلة تماماً للقدّيس غريغوريوس بالاماس: " επίβασις της ως αληθώς θεωρίας ή θεοπτίας"[١٧].

الرؤيا لا تعني للتقليد الأرثوذكسيّ وللقدّيس غريغوريوس بالاماس الانشغال الفكريّ بمسائل فكريّة فلسفيّة حول الإيمان.

إنّ رؤية الله أو الرؤيا أو التأمّل هي كلمات مرادفة تماماً للتألّه أي الاتّحاد بالله:-(θέωσις-θεωρία θεοπτία-βασιλεία). فهي إذاً نهاية وهدف الحياة المسيحيّة. لهذا تشكّل أيقونة التجلّي صورة – المرمى الأخير – الهدف. ليس الخلاص هو "التبرير" بمعنى محو خطايانا ونيل الغفران الإلهيّ. الخلاص في التقليد الأرثوذكسيّ هو التحرّر من الوضع الأوّلي المريض للإنسان، أي شفاء الطبيعة البشرية وتقويم الحياة الإنسانيّة

---

[12] Τσάμη, Δημητρίου, ό.π., σ.341.
[13] Θεοδώρου, Α., *Η περί του ανθρώπου διδασκαλία των Ελλήνων Πατέρων*, Αθήνα 1956, σ.119.
[14] Τσάμη, Δημητρίου, ό.π., σ.341.
[١٥] انظر غريغوريوس اللاهوتي، [*Λόγος* 40, 38, *PG* 36, 413A].
[١٦] غريغوريوس اللاهوتي، [*Λόγος* 20, 12, *PG* 35, 1080B].
Τσάμη, Δημητρίου, ό.π., σ.362.
[17] "αύτη πράξις ως αληθώς, επίβασις της ως αληθώς θεωρίας ή θεοπτίας". Βλάχου, Ιερόθεου, *Μικρά Είσοδος στην Ορθόδοξη πνευματικότητα*, έκδ. Αποστολική Διακονία, Αθήνα 1992, σ.85.

لتعود إلى طبيعتها الحقيقيّة وهي الحياة بالله ومعه. لما كان السقوط هو فصل الحياة الإنسانيّة عن الله، فإنّ الخلاص هو الاتّحاد به، الأمر الذي يتحقّق برفع الموانع وشفاء الضعف البشريّ. الرؤيا ليست مسألةً تخصّ الذهن بل الكيان كلّه. لهذا عندما شاهد إيليّا الله شعر بحرارةٍ بجسده[١٨].

لقد تميّز القديس بالاماس باهتمامه الخاصّ بموضوع الرؤيا ومعاينة النور الإلهيّ غير المخلوق. ولدى بالاماس عبارات لاهوتيّة جريئة حول ذلك مثل "قوّة الله المؤلِّهة" (θεοποιός δύναμις του Θεού)، وبذلك يبدو أكثر تحرّراً من العديد من الآباء الآخرين الذين لم يخرجوا عن العبارات الكتابيّة مثل باسيليوس الكبير[١٩]. الرؤيا ليست ثمرة المخيّلة (φαντασία) ولا هي ثمرة العمل العقلانيّ (διανοητικά, θεοριτικά[٢٠], στοχασμός[٢١])، إنّما هي الاتحاد بالله، أي الحياة معه دائماً والتمثّل به، وتشكّل حضرة الله الحيّة والدائمة الصورة المعبّرة عن هذه الحالة، لذلك فإنّ الرؤيا للتقليد الرهبانيّ هي حالة الاتّحاد بالله بالصلاة النقيّة التي لا يشوبها تشتّت للذهن، الأمر الذي يحصل بعد ممارسة الفضائل والجهادات وعضد النعمة[٢٢]. لذلك يَعتبر بالاماس، مكرّراً نظرة غريغوريوس اللاهوتيّ، أنّ عود الحياة في الفردوس لم يكن إلاّ الرؤيا – معاينة الله[٢٣].

الرؤيا إذاً هي الحالة التي تلي اللاهوى (απάθεια)، حين يمتلك الإنسان العشق الإلهيّ (θείον πάθος) ولا يكون فيه شيءٌ سوى الله (Χριστώ εν πάσι). وهذه هي حالة الكمال المسيحيّة[٢٤].

رؤية الله أو النور غير المخلوق (θεωρία, θεοπτία) ليست من عمل الذهن عند الإنسان، وليست مجرّد معرفة عقليّة، بل هي اتّحاد أو تألّه، أي مشاركة الله في حياته كما يتّحد النار بالحديد. إنّها ولوج في عالم الله وليست مراقبته من بعيد، إنّها مشاركة في المجد الإلهيّ.

لذلك تكلّم بالاماس موسّعاً عن الفلسفة الكاذبة، فالقديسون يتحدّثون لاهوتيّاً على طريقة "صيادي السمك" وليس على طريقة أرسطو الفلسفيّة. لأنّ رؤية الله هي اختبار للكشف الإلهيّ على عكس الهرطقات التي تعتمد على المخيّلة والفلسفات[٢٥].

---

[١٨] ١ملو ١٩، ١٢.

[19] Τσάμη, Δημητρίου, ό.π., σ.347. Gross, Jules, *La divinisation du Chrétien d'après les pères grecs,* ed. Gabalda, Paris 1938, p.244.

[20] Τσάμη, Δημητρίου, ό.π., σ.366.

[21] Evdokimov, Paul, *Η Ορθοδοξία*, έκδ. Ρηγόπουλος, Θεσσαλονίκη 1972, σ.148.

[22] Théognoste, *La Philocalie*, "Sur l'action et la contemplation", p.626.

[٢٣] غريغوريوس اللاهوتي، [*Λόγος*, 38, 12, *PG* 36, 324CE].

غريغوريوس بالاماس، [*ΕΠΕ Έργα*, τ.8, Εισαγωγή].

[٢٤] يعرف أوليفيه كليمان الرؤيا كالتالي:

"elle désigne la sensation spirituelle de Dieu, au Coeur et au delà de la prière. La contemplation est la transfiguration de l'action, de la praxis", *La Philocalie*, *Précisions de vocabulaires*, p.687.

[٢٥] غريغوريوس بالاماس، [*ΕΠΕ Έργα*, τ.2, σ.108].

هديّة

من هذه التعاريف لكلمة رؤيا يتّضح أنّ هذه الحالة ليست ثمرة الجهد البشريّ بل هي هديّة المحبّة الإلهيّة حصراً. لذلك لبالاماس فإنّ رؤية النور غير المخلوق ليست ثمناً للفضائل (مرحلة العمل) وإنّما هي هديّة الرّوح القدس (حالة التأمّل) لأنّها المقدرات الإنسانيّة العقليّة. نعم الفضائل تُعدّنا ولكن الاتّحاد بالله يأتي هدية[٢٦].

الرؤيا إذاً هي حالةٌ تهبها للإنسان المحبّةُ الإلهيّة[٢٧]. كما أنّ هذه الرؤيا وإن كانت نهاية الكمال المسيحيّ فهي نهاية لا تنتهي. إنّ الكمال الذي يقف عند حدٍّ، ما هو إلاّ "سقوطٌ" وخطيئة[٢٨].

أمثلة

والأمثلة الواضحة لبالاماس كما للقدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ هي مثال إيليّا وموسى والمعمدان وبشكلٍ خاصّ العذراء مريم[٢٩].

"الرؤيا" حالةُ توافقٍ داخليّة بين النفس البشرية والله، تأتي بعد تطهير القلب البشريّ الذي يصل حينها إلى المحبّة الكاملة لله. حالة تشبه حالة موسى عندما كان على الجبل وعندما شقّ البحر الأحمر[٣٠]، وكحالة إيليّا عندما أوقف المطر من السماء[٣١].

للجميع

على أنّ سمّو هذه الحالة لا يعني تخصّصها لبعض الناس دون سواهم. "التأمّل" هو المرحلة التي دُعي إليها كلّ إنسان. وليست الرهبنة والنسك في البريّة هي الطريق الوحيدة. لم يتردّد القديس بالاماس عن التكلّم عن النور غير المخلوق ورؤية الله حتّى في عظاته للشعب في تسالونيك.

الأمثلة السابقة (إيليّا- المعمدان- موسى- العذراء) تُعتبر حوافزَ وليست استثناءاتٍ. نعم هي ممكنةٌ للأنقياء الذين حقّقوا الطهارة فيهم بالصلاة والأعمال[٣٢]. إنّها هديّةٌ محفوظةٌ للجميع.

---

[26] "Η αρετή προετοιμάζει προς την θείαν ένωσιν. Αλλά η ένωσις είναι της θείας χάριτος". Βλάχου, Ιερόθεου, *Εκκλησιαστικό φρόνημα*, ό.π., σ.178.

[27] Evdokimov, Paul, *Η Ορθοδοξία*, ό.π., σσ.145-6. Théognoste, *La Philocalie*, “Sur l’action et la contemplation”, p.626.

[٢٨] غريغوريوس بالاماس، [*ΕΠΕ Έργα* τ.2, σ.478].
Βλάχου, Ιερόθεου, *Ο Άγιος Γρηγόριος Παλαμάς ως Αγιορείτης*, ό.π., σ.358.

[٢٩] غريغوريوس بالاماس، [*Υπέρ των ιερώς ησυχαζόντων*, *Ομ.* 1, 1, 4].

[٣٠] خر ١٤، ٢١.

[٣١] ١ملو ١٨، ٣٦-٣٨.

قد ينجح الرهبان خاصّةً في الارتقاء لهذه الحالة الروحيّة، ولكنَّ ذلك ممكنٌ للجميع من حيث المبدأ والدعوة الإلهيّة[٣٣].

خاتمة

الأهميّة ليست في اختيار أيٍّ طريق نسلك، طريق الخدمة أم الوحدة. فكلا الطريقَين هما "العمل" من أجل تحقيق الغاية الوحيدة لحياة الإنسان وهي التألّه - التأمّل - الرؤيا. المهمّ هو أن "نعمل" في كلّ طريقٍ لمجد الله، عندها فإنّ هذا العمل، بغضّ النظر عن طريقته، يقود الإنسان إلى طهارة القلب ويحرّره من الأنانيّة وهذه الطهارة تؤهّله للهديّة الإلهيّة - الرؤيا.

---

32 "Πάσι διδομένη τε και ορωμένη τοις δι'αγαθοεργίας ακριβώς και διά προσοχής ειλικρινούς…".
غريغوريوس بالاماس، [*Ομ*. 34, κεφ.11, *ΕΠΕ Έργα*, τ.10, σ.370].

٣٣ غريغوريوس بالاماس، [*ΕΠΕ Έργα*, τ.1, σ.52].

المراجع

Βλάχου, Ιερόθεου, Εκκλησιαστικό φρόνημα, έκδ. Ι. Μ. Γενεθλίου της Θεοτόκου, 21993.

Βλάχου, Ιερόθεου, Ο Άγιος Γρηγόριος Παλαμάς ως Αγιορείτης, έκδ. Ι. Μ. Γενεθλίου της Θεοτόκου, 1996.

Βλάχου, Ιερόθεου, Μικρά Είσοδος στην Ορθόδοξη πνευματικότητα, έκδ. Αποστολική Διακονία, Σειρά Θεωρία και Πράξη, Αθήνα 1992.

Γεωργίου Αρχιμ., Καθηγουμένου, Η θέωσις ως σκοπός της ζωής του ανθρώπου, έκδ. Ι.Μ. Οσίου Γρηγορίου, Άγιον Όρος 1997.

Evdokimov, Paul, Η Ορθοδοξία, έκδ. Ρηγόπουλος, Θεσσαλονίκη 1972.

Clément, Olivier, La Philocalie, présentée par Olivier Clément, Desclée de Brouwer, Paris 1995.

Gross, Jules, La divinisation du Chrétien d'après les pères grecs, ed. Gabal, Paris 1938.

Ζάχαρου, Ζαχαρία Αρχιμ., Αναφορά στη θεολογία του Γέροντος Σωφρονίου, Ι.Μ. Τιμίου Προδρόμου, Essex 2000.

Θεοδώρου, Α., Η περί του ανθρώπου διδασκαλία των Ελλήνων Πατέρων, Αθήνα 1956.

Καρδαμάκη, Μιχαήλ, Η σοφία λέγει, έκδ. Αρμός, Αθήνα 1997.

Μαντζαρίδου, Γεωργίου, Παλαμικά, έκδ. Πουρναρά, Θεσσαλονίκη 1998.

Σαχάρωφ, Αρχιμ. Σωφρονίου, Άσκησις και θεωρία, έκδ. Ι.Μ. τιμίου Προδρόμου, Essex 1996.

Φιλοκάλια των ιερών Νηπτικών, τ.Β' και Γ' έκδ. Το περιβόλι της Παναγίας, Θεσσαλονίκη 41993.

Ψευτογκά, Βασιλείου, Λόγος σαρκωμένος-Εκκλησία-Ευχαριστιακός λόγος, έκδ. Κυρομάνος, Θεσσαλονίκη 1998.